أمام أحدٍ من الناس، كائناً من كان؛ إلا على المؤمنين، فيكون عزيزاً على الكافرين، ذليلاً على المؤمنين.

* * *

● **إثبات الاسم لله:**

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله آية في إثبات الاسم لله تعالى، وآيات أخرى كثيرة في تنزيه الله تعالى ونفي المثيل عنه.

آية إثبات الاسم: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

* ﴿تَبَارَكَ﴾: قال العلماء: معناها: تعالى وتعاظم إن وصف بها الله؛ كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وإن وصف بها اسم الله؛ كان معناها: أن البركة تكون باسم الله؛ أي أن اسم الله إذا صاحب شيئاً؛ صارت فيه البركة.

ولهذا جاء في الحديث: «كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه بـ«بسم الله» فهو أبتر»؛[1] أي: ناقص البركة.

---

(١) روي هذا الحديث بألفاظ متعددة ومجموع رواياته يقضي بأنه حسن أو صحيح لغيره، وقد صححه غير واحد من الأئمة، وأعله آخرون. وانظر: «مسند الإمام أحمد» تحقيق أحمد شاكر (٨٦٩٧)، و«صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» تحقيق شعيب الأرناؤوط (١/ ١٧٣)، و«إرواء الغليل» (١ و ٢).

بل إن التسمية تفيد حل الشيء الذي يحرم بدونها؛ فإنه إذا سمى الله على الذبيحة صارت حلالاً، وإذا لم يسم صارت حراماً وميتة، وهناك فرق بين الحلال الطيب الطاهر، والميتة النجسة الخبيثة.

وإذا سمى الإنسان على طهارة الحدث؛ صحت، وإذا لم يسم؛ لم تصح على أحد القولين.

وإذا سمى الإنسان على طعامه؛ لم يأكل معه الشيطان، وإن لم يسم؛ أكل معه.

وإذا سمى الإنسان على جماعه، وقال: «اللهم! جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان مارزقتنا»[1]، ثم قدر بينهما ولد؛ لم يضره الشيطان أبداً، وإن لم يفعل؛ فالولد عرضة لضرر الشيطان.

وعليه؛ فنقول: إن ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هنا ليست بمعنى: تعالى وتعاظم، بل يتعين أن يكون معناها: حلت البركة باسم الله؛ أي أن اسمه سبب للبركة إذا صحب شيئاً.

* وقوله: ﴿ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]: ﴿ذِي﴾: بمعنى صاحب، وهي صفة لـ(رب)، لا لـ(اسم)، لو كانت صفة لـ(اسم)؛ لكانت: ذو.

* و﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾؛ بمعنى: العظمة.

---

(١) رواه: البخاري (٣٢٧١)، ومسلم (١٤٣٤)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

* ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؛ بمعنى: التكريم، وهو صالح لأن يكون الإكرام من الله لمن أطاعه، وممن أطاعه له.

فـ﴿ٱلۡجَلَٰلِ﴾: عظمته في نفسه، ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾: عظمته في قلوب المؤمنين، فيكرمونه ويكرمهم.

● **آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه:**

الشرح:

الآية الأولى: قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]:

شرع المؤلف رحمه الله بالصفات السلبية؛ أي: صفات النفي.

وقد مر علينا فيما سبق أن صفات الله عز وجل ثبوتية وسلبية ـ أي: منفية ـ؛ لأن الكمال لا يتحقق إلا بالإثبات والنفي؛ إثبات الكمالات، ونفي النقائص.

* قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾: الفاء مفرعة على ما سبق، وهو قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]؛ فذكر سبحانه وتعالى الربوبية ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، وفرَّع على ذلك وجوب عبادته؛ لأن كل من أقر بالربوبية؛ لزمه الإقرار بالعبودية والأُلوهية، وإلا؛ صار متناقضاً.

* فقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾؛ أي: تذلل له محبةً وتعظيماً، والعبادة؛ يراد بها المتعبَّد به، ويراد بها التعبُّد الذي هو فعل العبد؛

كما سبق في المقدمة.

* وقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾: اصطبر؛ أصلها في اللغة: اصتبر، فأُبدلت التاء طاء لعلة تصريفية. والصبر: حبس النفس. وكلمة (اصطبر) أَبلغ من (اصبر)؛ لأنها تدل على معاناةٍ؛ فالمعنى: اصبر، وإن شق عليك ذلك، واثبت ثبات القرين لقرينه في القتال.

* وقوله: ﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ قيل: إن اللام بمعنى (على)؛ أي: اصطبر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: بل اللام على أصلها؛ أي: اصطبر لها؛ أي: كن مقابلاً لها بالصبر؛ كما يقابل القرين قرينه في ميدان القتال.

* وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: الاستفهام للنفي، وإذا كان الاستفهام بمعنى النفي؛ كان مشرباً معنى التحدي؛ يعني: إن كنت صادقاً؛ فأخبرنا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ و(السمي): الشبيه والنظير. يعني: هل تعلم له مسامياً أو نظيراً يستحق مثل اسمه؟

والجواب: لا.

فإذا كان كذلك؛ فالواجب أن تعبده وحده.

وفيها من الصفات: قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، وهي من الصفات السلبية.

فما الذي تتضمنه من صفات الكمال (لأننا ذكرنا فيما سبق أن الصفات السلبية لا بد أن تتضمن ثبوتاً) فما هو الثبوت الذي تضمنه النفي هنا؟

الجواب: الكمال المطلق، فيكون المعنى: هل تعلم له سميّاً لثبوت كماله المطلق الذي لا يساميه أحد فيه؟

الآية الثانية: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

* تقدم الكلام عليها؛ أي: ليس يكافئه أحدٌ، وهو نكرة في سياق النفي فتعم.

* و﴿كُفُوًا﴾ فيها ثلاث قراءات: كُفُواً، وكُفْئاً، وكُفُؤاً؛ فهي بالهمزة ساكنة الفاء ومضمومتها، وبالواو مضمومة الفاء لا غير، وبهذا نعرف خطأ الذين يقرؤون بتسكين الفاء مع الواو (كُفْواً).

هذه الآية أيضاً فيها نفي الكفء لله عز وجل، وذلك لكمال صفاته؛ فلا أحد يكافئه؛ لا في علمه، ولا سمعه، ولا بصره، ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته، ولا غير ذلك من صفاته.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

* هذا مفرَّع على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وكل هذا من توحيد الربوبية، ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]؛ يعني: في الأُلوهية؛ لأن أولئك القوم المخاطبين لم يجعلوا لله

أنداداً في الربوبية، إذاً؛ فلا تجعلوا لله أنداداً في الأُلوهية كما أنكم تقرون أنه ليس له أنداداً في الربوبية.

* وقوله: ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، وند الشيء ما كان منادّاً (أي: مكافئاً) له ومشابهاً، وما زال الناس يقولون: هذا ندٌّ لهذا؛ أي: مقابل له ومكافىء له.

* وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة هنا حالية، وصاحب الحال هي الواو في قوله: ﴿لا تجعلوا﴾، والمفعول محذوف؛ يعني: وأنتم تعلمون أنه لا ند له.

الجملة الحالية هنا صفة كاشفة، والصفة الكاشفة كالتعليل للحكم؛ فكأنه قال: لا تجعلوا لله أنداداً؛ لأنكم تعلمون أنه لا ند له، فإذا كنتم تعلمون ذلك؛ فكيف تجعلونه فتخالفون علمكم؟!

وهذه أيضاً سلبية، وذلك من قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ لأنه لا ند له، لكمال صفاته.

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

* ﴿وَمِنَ﴾: تبعيضية، والميزان لـ (من) التبعيضية أن يحل محلها: بعض؛ يعني: وبعض الناس.

* ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾: يتخذهم أنداداً؛ يعني: في المحبة؛ كما فسره بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، ويجوز أن نقول: إن المراد بالأنداد ما هو أعم من المحبة؛ يعني: أنداداً

يعبدونهم كما يعبدون الله، وينذرون لهم كما ينذرون لله؛ لأنهم يحبونهم كحب الله؛ يحبون هذه الأنداد كحب الله عز وجل.

وهذا إشراك في المحبة؛ بحيث تجعل غير الله مثل الله في محبته.

وينطبق ذلك على من أحب رسول الله كحب الله؛ لأنه يجب أن تحب رسول الله ﷺ محبة ليست كمحبة الله؛ لأنك إنما تحب الرسول ﷺ تبعاً لمحبة الله عز وجل، لا على أنه مناد لله؛ فكيف بمن يحبون الرسول ﷺ أكثر مما يحبون الله؟!

وهنا يجب أن نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله:

المحبة مع الله: أن تجعل غير الله مثله في محبته أو أكثر. وهذا شرك.

والمحبة في الله أو لله: هي أن تحب الشيء تبعاً لمحبة الله عز وجل.

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات:

أولاً: في قوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]: إذا علمنا أن الله تعالى موصوف بالجلال؛ فإن ذلك يستوجب أن نعظمه، وأن نجله. وإذا علمنا أنه موصوف بالإكرام فإن ذلك يستوجب أن نرجو كرمه وفضله. وبذلك نعظمه بما يستحقه من التعظيم والتكريم.

ثانياً: قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]؛ فالفوائد

المسلكية في ذلك هو أن يعبد العبد ربه، ويصطبر للعبادة؛ لا يمل، ولا يتعب، ولا يضجر، بل يصبر عليها صبر القرين لقرينه في المبارزة في الجهاد.

ثالثاً: قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]؛ ففيها تنزيه لله عز وجل، وأن الإنسان يشعر في قلبه بأن الله تعالى منزه عن كل نقص، وأنه لا مثيل له، ولا ند له، وبهذا يعظمه حق تعظيمه بقدر استطاعته.

رابعاً: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فمن فوائدها من الناحية المسلكية: أنه لا يجوز للإنسان أن يتخذ أحداً من الناس محبوباً كمحبة الله، وهذه تسمى المحبة مع الله.

الآية الخامسة: قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾. [الإسراء: ١١١].

* ﴿وَقُلِ﴾: الخطاب في مثل هذا: إما خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو عام لكل من يصح توجيه الخطاب إليه.

فإن كان خاصاً بالرسول ﷺ؛ فهو خاص به بالقصد الأول، وأمته تبع له.

وإن كان عامّاً؛ فهو يشمل الرسول ﷺ وغيره بالقصد الأول.

* ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: سبق تفسير هذه الجملة، وأن الحمد هو

وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

* وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص:

للاستحقاق؛ لأن الله تعالى يُحمد وهو أهل للحمد.

والاختصاص؛ لأن الحمد الذي يُحمد الله به ليس كالحمد الذي يُحمد به غيره، بل هو أكمل وأعظم وأعم وأشمل.

* وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: هذا من الصفات السلبية: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره، ولأنه لا مثيل له؛ فلو اتخذ ولداً؛ لكان الولد مثله، لو كان له ولد؛ لكان محتاجاً إلى الولد يساعده ويعينه، لو كان له ولد؛ لكان ناقصاً؛ لأنه إذا شابهه أحد من خلقه؛ فهو نقص.

* وقوله: ﴿وَلَدًا﴾: يشمل الذكر والأنثى؛ ففيه رد على اليهود والنصارى والمشركين:

اليهود قالوا: لله ولد، وهو عزير!

والنصارى قالوا: لله ولد، وهو المسيح!

والمشركون قالوا: لله ولد، وهم الملائكة!

* وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾: هذا معطوف على قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ يعني: والذي لم يكن له شريك في الملك؛ لا في الخلق، ولا في الملك، ولا في التدبير.

كل ما سوى الله؛ فهو مخلوق لله، مملوك له، يدبره كما

يشاء، ولم يشاركه أحد في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٣] على سبيل التعيين، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٣] على سبيل الشيوع، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ لم يعاونه أحد في هذه السماوات والأرض، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]، وبهذا تقطعت جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون في آلهتهم.

فالآلهة هذه لا تملك من السماوات والأرض شيئاً معيناً، وليست شريكة لله، ولا معينة، ولا شافعة؛ إلا بإذنه، يقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

* وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: لم يكن له ولي، لكنه قيّد بقوله: ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

* و﴿مِّنَ﴾ هنا للتعليل؛ لأن الله تعالى له أولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي وليّاً؛ فقد آذنته بالحرب...»[1]، ولكن الولي المنفي هو الولي من الذل؛ لأن الله تعالى له العزة جميعاً؛ فلا يلحقه الذل بوجه من الوجوه؛ لكمال عزته.

* وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ يعني: كبر الله عز وجل تكبيراً؛

---

(١) رواه: البخاري (٦٥٠٢)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بلسانك وجنانك: اعتقد في قلبك أن الله أكبر من كل شيء، وأن له الكبرياء في السماوات والأرض، وكذلك بلسانك تكبره؛ تقول: الله أكبر!

وكان من هدي النبي ﷺ وأصحابه أنهم يكبرون كلما عَلَوْا نشزاً[1]؛ أي: مرتفعاً، وهذا في السفر؛ لأن الإنسان إذا علا في مكانه؛ قد يشعر في قلبه أنه مستعلٍ على غيره، فيقول: الله أكبر. من أجل أن يخفف تلك العلياء التي شعر بها حين علا وارتفع.

وكانوا إذا هبطوا؛ قالوا: سبحان الله. لأن النزول سفول، فيقول: سبحان الله؛ أي: أنزهه عن السفول الذي أنا الآن فيه.

* وقوله: ﴿تَكْبِيرًا﴾: هذا مصدر مؤكد، يراد به التعظيم؛ أي: كبره تكبيراً عظيماً.

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآية:

أن الإنسان يشعر بكمال غنى الله عز وجل عن كل أحد، وانفراده بالملك، وتمام عزته وسلطانه، وحينئذ يعظم الله سبحانه وتعالى بما يستحق أن يعظم به بقدر استطاعته.

ونستفيد حمد الله تعالى على تنزهه عن العيوب؛ كما يحمد على صفات الكمال.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

---

(١) لما رواه البخاري (٢٩٩٣)، عن جابر رضي الله عنهما قال: «كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا» وسيأتي في (٢/ ٥٤).

ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

* ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ بمعنى: ينزه عن كل صفة نقص وعيب، و(سبح) تتعدى بنفسها وتتعدى باللام:

- أما تعديها بنفسها؛ فمثل قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

- وأما تعديها باللام؛ فهي كثيرة؛ فكل السور المبدوءة بهذا متعدية باللام.

قال العلماء: وإذا أريد مجرد الفعل؛ تعدت بنفسها: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ فمعنى ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: تقولوا: سبحان الله!

وإذا أريد بيان القصد والإخلاص؛ تعدت باللام، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾؛ أي: سبحوا إخلاصاً لله واستحقاقاً.

فاللام هنا تبين كمال الإرادة من الفاعل، وكمال الاستحقاق من المسبح، وهو الله.

* وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: عام يشمل كل شيء.

لكن التسبيح نوعان: تسبيح بلسان المقال، وتسبيح بلسان الحال.

- أما التسبيح بلسان الحال؛ فهو عام: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ـ وأما التسبيح بلسان المقال؛ فهو عام كذلك، لكن يخرج منه الكافر؛ فإن الكافر لم يسبح الله بلسانه، ولهذا يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]؛ فهم لم يسبحوا الله تعالى؛ لأنهم أشركوا به ووصفوه بما لا يليق به.

فالتسبيح بلسان الحال يعني: أن حال كل شيء في السماوات والأرض تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث وعن النقص، حتى الكافر إذا تأملت حاله؛ وجدتها تدل على تنزه الله تعالى عن النقص والعيب.

وأما التسبيح بلسان المقال؛ فيعني: أن يقول: سبحان الله.

* وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

هذه الصفات الأخيرة صفات ثبوتية، وسبق ذكر معناها، لكن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ صفة سلبية؛ لأن معناها؛ تنزيهه عما لا يليق به.

الآية السابعة والثامنة: وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١ ـ ٢].

* ﴿تَبَارَكَ﴾؛ بمعنى: تعالى وتعاظم.

* و﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: هو الله عز وجل.

* وقوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ يعني به: القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المسلم والكافر، وبين البر والفاجر، وبين الضار

والنافع، وغير ذلك مما فيه الفرقان؛ فكله فرقان.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: محمد عليه الصلاة والسلام، فوصفه بالعبودية في مقام التحدث عن تنزيل القرآن عليه، وهذا المقام من أشرف مقامات النبي ﷺ.

ولهذا وصفه الله تعالى بالعبودية في مقام تنزيل القرآن عليه؛ كما هنا، وكما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ووصفه بالعبودية في مقام الدفاع عنه والتحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ووصفه بالعبودية في مقام تكريمه بالمعراج، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في سورة النجم: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]؛ مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية لله يعد كمالاً؛ لأن العبودية لله هي حقيقة الحرية؛ فمن لم يتعبد له؛ كان عابداً لغيره.

قال ابن القيم رحمه الله[1]:

هَرَبوا مِنَ الرِّقِّ الذي خُلِقوا لَهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ والشَّيْطانِ

و «الرق الذي خلقوا له»: عبادة الله عز وجل.

و «بلوا برق النفس والشيطان»: حيث صاروا أرقاء لنفوسهم، وأرقاء للشيطان؛ فما من إنسان يفر من عبودية الله؛ إلا وقع في عبودية هواه وشيطانه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ

---

(١) «الكافية الشافية» لابن القيم بشرح ابن عيسى (٢/ ٤٦٦).

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

* قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾: اللام هنا للتعليل، والضمير في ﴿لِيَكُونَ﴾ عائد على النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله تعالى قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فالمنذر: الرسول عليه الصلاة والسلام.

* وقوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: يشمل الجن والإنس.

* وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: تقدم معناها.

* وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾: سبق معناهما، وهما صفة سلبية.

* ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾: الخلق: الإيجاد على وجه معين. والتقدير: بمعنى التسوية أو بمعنى القضاء في الأزل، والأول أصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]، وبه تكون الآية على الترتيب الذكري والمعنوي، وعلى الثاني تكون الآية على الترتيب الذكري.

ونستفيد من هذه الآيات من الناحية المسلكية:

أنه يجب علينا أن نعرف عظمة الله عز وجل، وننزهه عن كل نقص، وإذا علمنا ذلك؛ ازددنا محبة له وتعظيماً.

ومن آيتي الفرقان نستفيد بيان هذا القرآن العظيم، وأنه مرجع العباد، وأن الإنسان إذا أراد أن تتبين له الأمور؛ فليرجع إلى

القرآن؛ لأن الله سماه فرقاناً: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

ونستفيد أيضاً من الناحية المسلكية التربوية: أن تتأكد وتزداد محبتنا لرسول الله ﷺ؛ حيث كان عبداً لله، قائماً بإبلاغ الرسالة وإنذار الخلق.

ونستفيد أيضاً من أن النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرسل؛ فلا نصدق بأي دعوى للنبوة من بعده؛ لقوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾، ولو كان بعده رسول؛ لكان تنتهي رسالته بهذا الرسول، ولا كانت للعالمين كلهم.

الآية التاسعة والعاشرة: قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢].

* ينفي الله تعالى في هذه الآية أن يكون اتخذ ولداً، أو أن يكون معه إله.

ويتأكد هذا النفي بدخول ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾، وقوله: ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ لأن زيادة حرف الجر في سياق النفي ونحوه تفيد التوكيد.

* فقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾؛ يعني: ما اصطفى أحداً يكون ولداً له؛ لا عزير، ولا المسيح، ولا الملائكة، ولا غيرهم؛

لأنه الغني عما سواه.

وإذا انتفى اتخاذه الولد؛ فانتفاء أن يكون والداً من باب أولى.

* وقوله: ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾: ﴿إِلَٰهٍ﴾؛ بمعنى: مألوه؛ مثل: بناء؛ بمعنى: مبني، وفراش؛ بمعنى: مفروش؛ فالإله بمعنى المألوه؛ أي: المعبود المتذلَّل له.

يعني: ما كان معه من إله حق، أما الآلهات الباطلة؛ فهي موجودة، لكن لكونها باطلة؛ كانت كالعدم؛ فصح أن يقال: ما كان مع الله من إله.

* ﴿إِذًا﴾؛ يعني: لو كان معه إله.

* ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: لو كان هناك إله آخر يساوي الله عز وجل؛ لكان له ملك خاص ولله ملك خاص؛ يعني: لانفرد كل واحد منهم بما خلق؛ قال: هذا خلقي لي، وكذلك الآخر.

وحينئذ؛ يريد كل منهما أن يسيطر على الآخر كما جرت به العادة؛ فملوك الدنيا كل واحد منهم يريد أن يسيطر على الآخر، وتكون المملكة كلها له، وحينئذ:

إما ان يتمانعا، فيعجز كل واحد منهما عن الآخر، وإذا عجز كل واحد منهما عن الآخر؛ ما صح أن يكون واحد منهما إلهاً؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً.

وإما أن يعلو أحدهما على الآخر؛ فالعالي هو الإله.

فترجع المسألة إلى أنه لا بد أن يكون للعالم إله واحد، ولا يمكن أن يكون للعالم إلهان أبداً لأن القضية لا تخرج من هذين الاحتمالين.

كما أننا أيضاً إذا شاهدنا الكون علويه وسفليه؛ وجدنا أنه كون يصدر عن مدبر واحد، وإلا؛ لكان فيه تناقض؛ فأحد الإلهين يقول مثلاً: أنا أُريد الشمس تخرج من المغرب! والثاني يقول: أُريدها تطلع من المشرق! واتفاق الإرادتين بعيد جدّاً، ولا سيما أن المقام مقام سلطة؛ فكل واحد يريد أن يفرض رأيه!

ومعلوم أننا لا نشاهد الآن الشمس تطلع يوماً مع هذا ويوماً مع هذا، أو يوماً تتأخر لأن الثاني منعها ويوماً تتقدم لأن الأول أمر الثاني بإخراجها؛ فلا نجد هذا؛ نجد الكون كله واحداً متناسباً متناسقاً، مما يدل دلالة ظاهرة على أن المدبر له واحد، وهو الله عز وجل.

فبين الله سبحانه وتعالى بدليل عقلي أنه لا يمكن التعدد؛ إذ لو أمكن التعدد؛ لحصل هذا؛ لانفصل كل واحد عن الثاني، وذهب كل إله بما خلق، وحينئذ إما أن يعجز أحدهما عن الآخر وإما أن يعلو أحدهما الآخر؛ فإن كان الأول؛ لم يصلح أي واحد منهما للألوهية، وإن كان الثاني؛فالعالي هو الإله، وحينئذ يكون الإله واحداً.

فإن قيل: ألا يمكن أن يصطلحا وينفرد كل واحد بما خلق؟

فالجواب: أنه لو أمكن ووقع؛ لزم أن يختل نظام العالم.

ثم إن اصطلاحهما لا يكون إلا لخوف كل واحد منهما من الآخر، وحينئذ لا تصلح الربوبية لواحد منهما؛ لعجزه عن مقاومة الآخر.

* ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً لله عز وجل عما يصفه به الملحدون المشركون الذين يقولون في الله سبحانه ما لا يليق به.

* ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة: ما شهده الناس.

* ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿فَتَعَالَى﴾؛ يعني: ترفع وتقدس وتنزه.

* ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عن الأصنام التي جعلوها آلهة مع الله تعالى.

وفي هاتين الآيتين من صفات النفي: تنزه الله تعالى عن اتخاذ الولد الذي وصفه به الكافرون، وعن الشريك له في الألوهية الذي أشرك به المشركون.

وهذا النفي لكمال غناه وكمال ربوبيته وإلهيته.

ونستفيد منهما من الناحية المسلكية: أن الإيمان بذلك يحمل الإنسان على الإخلاص لله عز وجل.

الآية الحادية عشرة: قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

* يعني: لا تجعلوا لله مثلاً، فتقولون: مثل الله كمثل كذا وكذا! أو تجعلوا له شريكاً في العبادة.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى يعلم بأنه ليس له مثل، وقد أخبركم بأنه لا مثل له؛ في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]... وما أشبه ذلك؛ فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقد يقال: إن هذه الجملة تتضمن الدليل الواضح على أن الله ليس له مثل، وأنها كضرب المثل في امتناع المثل؛ لأننا نحن لا نعلم والله يعلم؛ فإذا انتفى العلم عنا، وثبت لله؛ فأين المماثلة؟! هل يماثل الجاهل من كان عالماً؟!

ويدلك على نقص علمنا: أن الإنسان لا يعلم ما يفعله في اليوم التالي: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وأن الإنسان لا يعلم روحه التي بين جنبيه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وما زال الفلاسفة والمتفلسفة وغيرهم يبحثون عن حقيقة هذه الروح، ولم يصلوا إلى حقيقتها، مع أنها هي مادة الحياة، وهذا يدل على نقصان العلم في المخلوق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وبين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؟!

الجواب: أنه هناك يخاطب الذين يشركون به في الألوهية فيقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في العبادة والألوهية ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ند له في الربوبية؛ بدليل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]. أما هنا؛ ففي باب الصفات: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، فتقولوا مثلاً: إن يد الله مثل يد كذا! وجه الله مثل وجه كذا! وذات الله مثل الذات الفلانية... وما أشبه هذا؛ لأن الله تعالى يعلم وأنتم لا تعلمون، وقد أخبركم بأنه لا مثيل له.

أو يقال: إن إثبات العلم لهم خاص في باب الربوبية، ونفيه عنهم خاص في باب الألوهية؛ حيث أشركوا بالله فيها، فنزلوا منزلة الجاهل.

وهذه الآية تتضمن من الكمال كمالَ صفات الله عز وجل؛ حيث إنه لا مثيل له.

أما الفائدة المسلكية التي تؤخذ من هذه الآية، فهي كمال تعظيمنا للرب عز وجل؛ لأننا إذا علمنا أنه لا مثيل له؛ تعلقنا به رجاءً وخوفاً، وعظمناه، وعلمنا أنه لا يمكن أن يماثله سلطان ولا

ملك ولا وزير ولا رئيس، مهما كانت عظمة ملكيتهم ورئاستهم ووزارتهم؛ لأن الله سبحانه ليس له مثل.

الآية الثانية عشرة: قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل معلناً للناس.

* ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وذلك لمقابلة تحريم من حرم ما أحل الله.

* ﴿حَرَّمَ﴾؛ بمعنى: منع، وأصل هذه المادة (ح ر م) تدل على المنع، ومنه: حريم البئر: للأرض التي تحميه حوله؛ لأنه يمنع من التعدي عليه.

* ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة، وهي الذنب الذي يستفحش؛ مثل: الزنى واللواط.

الزنى؛ قال الله فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي اللواط؛ قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ومن الزنى أن يتزوج الإنسان امرأة لا تحل له لقرابة أو رضاع أو مصاهرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾